

# تأملات في الترجمة

## للدكتور محمد عزيز الحجابي

**اختلاف** لجنة تنظيم هذا الاحتفال الخمسيني مباحث ، منها « الترجمة من العربية وإليها » وهو مبحث مهم جداً ، سيكتفى هذا العرض بتقديم تأملات عن الترجمة ، في المعنى التقني وفي معان أشمل .

\* \* \*

ينكب شعب على الترجمة عندما يشعر بالحاجة إلى توسيع آفاقه المعرفية . فحركة الترجمة ، عند العرب ، لم تبدأ إلا عندما اختلطوا بثقافات جديدة لم يكن لهم عهد بها أي بعد أن اعتنقت شعوب غير عربية الإسلام وأخذت تتعلم العربية ، لغة القرآن ، وتدخل فيها مباحث ومفاهيم جديدة إذ انطلقت تيارات كانت خميرة لما سيمسى بـ « الحضارة العربية الإسلامية » إن الدوافع إلى الترجمة كانت ملحة وقصدية : إنها حركة فرضتها ظروف تاريخية أبدعها الإسلام ودخلت المجتمع الحديد ، عنوة فرمت إلى نقل ما عند الآخرين إلى العرب . لقد كان نقلاً غائباً استلزم اختياراً لما يجب ترجمته ولما يجب تجنبه . ترجمت ، عن اليونان ، كتب في المنطق والفلسفة ( الحكمة ) وأعرض عن الأدب ( شعر ومسرح ) .

### انها ترجمة انتقائية :

وحتى ما ترجم لم ينقل كما هو ، بل دخلت عليه ، أحياناً ، تأويلات ونلخص بعضه وشرح بعضه ، رغبة في الوضوح والتبسيط ، أو رغبة في التكييف حسب ما يلائم المبادئ الإسلامية . إن مثل تلك الرغبتين ، رغم ما فيهما من منافع تسيئان أحياناً إلى النصوص المترجمة .

\* \* \*

ومما يلاحظ اليوم ، على الترجمة إلى العربية ، أنه كثيراً ما يفضل المترجم أناقة الأسلوب على الدقة ، فينحرف شيئاً ما عن النص الأصلي ، حفاظاً على « فصاحة العربية » وبيانها . فمثلاً ، افتن مصطفى لطفى المنفلوطى في أسلوب ترجمة « غادة الكاميليا » إلى درجة أن صيغتها العربية « ألد » منها في الصيغة الأصلية ، وهذا ما يطلق عليه ، عند المترجمين « الحميلات الخائبات في الزواج » :

ومن جهة أخرى ، إن الحرص على الدقة وهو فضيلة يدفع أحيانا إلى ترجمة حرفية  
تضيق عبقرية إحدى اللغتين ، المنقول إليها أو المنقول منها وقد تضمحل عبقرية كليهما .

\* \* \*

للفظ « ترجمة » معان أخرى أعم من النقل من لغة إلى لغة ، يترجم الفرد إحساساته وحسياته  
شعراً أو تشكيلاً أو أنغاماً ، كما يترجم الفرد عما يشاهده ، إما لغويا وإما بأرقام ... بيد  
أنه ، حتى في هذه الأحوال تقع عملية نقل من حال إلى حال مغايرة .

### ولماذا « النقل » ؟

إن المعطيات تبرز أول ما تبرز في حال خام ، وتكتسب وضوحاً ودقة بفضل الانتقال  
من . . . إلى . . . إنه تحول يكتسبها فتصبح قابلة للتطور .

تنقوى النظريات العلمية وتزدهر عندما « تترجم » إلى أرقام أو معادلات أو رموز ،  
كما تتبلور عواطفنا عندما تتحول شعراً أو قطعة موسيقية . إذ ذاك ترتفع الألفاظ من تسمية  
الخاص إلى العام ، ومن المحسوس إلى التجريد لتسمى مفاهيم وتصورات قابلة للتنظير .

تلك بداية التفلسف أو التأمل العلمي .

تتطرق الترجمة في معناها العام لنص مكتوب ، أو ظاهرة حسية ، أو شعور . .  
فيحول ذلك إلى شيء آخر أو حال أخرى ، دون أن يعزله عن هويته : إنه هو هو ،  
وفي نفس الآن ، إن هويته السابقة لم تبقى هي هي بأتم الكمال ، لقد دخلت إلى حد  
ما طوراً جديداً ، من حيث الشكل أو المضمون إنه طور جديد ، بيد أنه ليس الطور  
الوحيد فكل ما يفتح على التجدد أو التجديد مرة فيظهر قابلية على أن يتغير مرات .

لقد ترجمت بعض نصوص ويليام شيكسبير إلى العربية ، وأعاد مترجمون  
آخرون الترجمة ، فبدت اختلافات ملحوظة بين الترجمات إذ لكل مترجم انفعال خاص  
مع النص ، كما أن قوة الإدراك ، والمعرفة باللسان الإنجليزي أو بالعربية ليستا من نفس  
المستوى وكذلك الخبرة والمرونة تتفاوت من مترجم لآخر ، فالذاتية تتدخل أردنا  
أولم نرد ، في كل ما نمارسه فنقلص أو نضيف إليه شيئاً منا ، وبما أننا نتطور  
بمقتضى الصيرورة التاريخية المألوفة للحياة ، يتطور معنا مجموع أفعالنا ،  
فانفعالات الطفولة والقدرة على العقلنة ليست هي انفعالات الكهولة وقدراتها وتجاربها ،  
وللمهينة تأثير على أسلوب الترجمة ومن جهة أخرى ، غالباً ما يتحري الجامعيون  
الباحثون الدقة ولوينات الألفاظ والعبارات ، في حين أن المترجم العادي يكتفى بإيصال

المعنى العام ، وقد يتغلب على صعوبة بعض العبارات أو الجمل بحذفها « كم من حاجة قضيناها بتركها » .

لذلك ينزع المترجمون نحو الأمانة ، ولكن الأمانة التامة صعبة المراد . لقد قيل بأن كل ترجمة ضرب من الخيانة .

\* \* \*

### صلاحية الترجمة :

إن الترجمة تمرين جد مجد في تكوين الحاسة اللسانية لدى الفرد تزداد بالعربي إتقاناً للسان الأجنبي الذي يترجم منه أو إليه ، وبالتالي ينمي معرفته بالعربية نفسها . ومن جملة مزايا الترجمة ، تكييف الأفراد على التواصل مع الآخرين . ثم إنها عنصر تخاطب الثقافات كما هي عنصر انسجام داخل نفس الثقافة بين الفنون ومختلف أصناف المعرفة .

وبالنسبة لجمهرة من العرب والمعربين والمستعربين الذين تعودوا على الإكثار من الحشو ورغبة في السجع أو التفتيح بالمتزادات وعلى استعمال الغريب ، حيننا إلى الماضي وإظهاراً للاطلاع ، تعلم الترجمة الإدراك والدقة في التعبير . فالترجم إلى العربية مضطر ألا يخرج عن النص لكونه محاصراً داخل اللسان المترجم عنه فلا ينقل إلا ما هو موجود وكل إضافة تحسب عليه . إما أن يبقى حذراً وإما أن يخون النص ومن واجباته أيضاً ألا يترك النص يحرقه خارج الواقع المعطى في تجريدات حتى يغدو هو نفسه يتخبط في التجريد :

\* \* \*

على هذا تبقى الترجمة في المعنى العام جسراً بين الثقافات ، وأداة تواصل بين الأفراد وبين الشعوب ، وتكييف للأذهان إنها محرك دينامي للتطور وللصيرورة .

وبالإضافة إلى كل ذلك للترجمة دور هام آخر : إنها تسهم في صنع تاريخ الشعوب والأمم كما تنمي تاريخية الأفراد والجماعات .

\* \* \*

دخل الأوروبيون عصر النهضة الأولى ( القرن الثاني عشر الميلاد ) بعد أن مروا بمراحل خلقتها ونمتها الترجمة فتغيرت أو ضاعهم وانطلقوا في تطور حضارى من حسن إلى أحسن . وقبل الأوروبيين ، عرف العالم العربي - الإسلامى إقبالا على الترجمة ، ومالبث أن أصبح مبدعاً في شتى الميادين الحضارية .

نفس الوضع في عهد النهضة الأوروبية الثانية ( القرن ١٥ والقرن ١٦ ) : اكتشاف جديد للآثار الفكرية الأدبية اليونانية واللاتينية عن طريق الترجمة ، نتجت عنه إنسية ورمت في تطورها ، إلى الشمول . وهذا التطور حقق الغرب حضارة التصنيع التي هيمنت على الإنسانية قرونا ، وها هي تستعد لطفرة جديدة نحو حضارة ما بعدالتصنيع ، ودأما بمشاركة الترجمة الفعالة .

والملاحظة القارة التي تستخلص استنتاجا واستقراء ، هي أن كل نهضة تمر بمراحل ، ولكل مرحلة أسلوب في الترجمة بحيث إن المراحل المزدهرة يوازها ازدهار المترجمين إنه تطور متصاعد ومتنام .

\* \* \*

#### ما التطور :

كل منظومة حية تمر بمراحل انتقائية ، وأحيانا بمجرد تحركات انتقالية عشوائية بيد أن الانتقال وإن خضع لنظام ، طبقاً لقوانين ، ليس دائماً تطورا ، فقد تكون حياة ولا يحصل تطور فالتطور انتقالات حسب أنظمة موجهة أي إنها تخضع لتصميمات مسبقة ، وكل تصميم يجسد مشروعا ويرمى إلى تحقيق غاية .

العالم كله يتحرك إلا أن من بين الشعوب ما ينتقل طبقا لخطاطات تقطر السير إلى الأمام ، ومنها ما يتحرك في مكانه لا يبارحه ، أو يرجع إلى الوراء وفي كلتا الحالتين ، لا ينشأ عن ذلك إلاخلل في المسيرة . ويسمى هذا الخلل « تخلفا » أي سيرا إلى الخلف أو الدوران دون محور إنه نوع من حركات تتعب ولا تنتج « جمعجة ولا أرى طحنا » ومهما تضخمت الضوضاء لن « تغنى من جوع » .

\* \* \*

يطلق « التخلف » على منظومة لا تتناسق عناصرها ، فتتحرك حول نفسها لا يقابل « التخلف » بالضرورة « التقدم » ، لأن التقدم لا يحصل إلا إذا أحكمت استراتيجية التطور قد يسجل نمو ومع ذلك لا يتبعه تقدم على أن التقدم والتخلف كلاهما حركة تاريخية أي تطور إلى الأمام أو إلى الخلف ، فالعالم المصنع ينمو ، والعالم الثالث يتخلف وإن النمو عنصر من عناصر التطور ، وعندما تكون أمة نسقاً واعيا لا استراتيجية التطور تبدأ

المراحل تتدرج والخطوات تتابع من سريعة إلى أسرع حتى تتكامل ، إذك تستثمر الأمة أكثر ما يمكن من إمكانياتها ، حسب ما تسمح به الوسائل المتوفرة .

### مستقبل ما :

بفضل ذلك النسق ، وبفضل تلك الاستراتيجية ، تتبلور لدى الأمة آفاق المستقبل وتخطط لها تصميمات ، وتبنى المشى الآنى والبعيد ، حسب قيم شمولية وبتلك القيم ، تحدد معايير السلوك الفردى وللمعاملات ذلك نوع من التقدم .

أما النوع الثانى فعبارة عن نزوع نحو نماذج حياتية لم يتم بعد تحقيقها ، فتعمل الأمة على الاقتراب منها ، تدريجيا .

\* \* \*

### الترجمة والازمات :

من الملاحظ أن حضارة التصنيع ، منذ أن بدأت تهمل التفتح على ثقافات البلدان غير المصنعة ، لا تترجم منها لتتعرف عليها بل أخذت تحتقر كل ما هو ثالثى ، باستثناء ما بالعالم الثالث من مواد خام تستغل اقتصاديا منذ ذلك ودخل الغرب عصر تنامى الأزمات المختلفة والصراعات الداخلية والخارجية .

نعم يعيش اليوم الغرب فى تقدم رائع علميا وتقنيا ، بيد أنه افتقد التقدم الخلقى والاطمئنان النفسى ، والمتعة الوجدانية (راحة البال وراحة الضمير ) إنه تقدم ما دام هناك تطور به يسير الغربيون إلى الأمام إلا أنه تقدم مهزوز ، مسيرة بدون مقاصد . وسبلها بلا معالم لقد باغت الحياة عتبة التيه فى متاهات اللا - معنى والاستهتار . رمى التصنيع أول مارمى ، إلى ترقية الإنسان ثم بات معاديا للإنسانية ، لا يترجم آمالها ولا يخفف من آلامها لقد فتحت كل الأبواب أمام « مارس » إله الحرب ، وسخرت له رؤوس الأموال ومخاخ الرؤوس المفكرة ، فحازت أسلحة الدمار على قصب السبق فى الرواج ، بالنسبة لبقية البضائع ، واستحوذت على اهتمام رؤساء الدول ، كبيرها وصغيرها . إنه تخلف جهنمى شامل وشمولى ، أن تقضى عليه لإقوات متجددة تتجه بعزم ، لترجم الحاجات الإنسانية وآلامها بالتساوى . إذك تقرب وتلين القلوب وتسخى وتتعاون الحيوب .

أمام هذا المشروع الأمل يقف عائق عنيد : إن الدول القوية وأذيالها من « برامكة » الدول الضعيفة ، يترجمون على ذواتهم من مرآة السلطة ومركب الكمال ، فيكون أفكار

مسبقة ونظريات قبلية ، إنهم يحتقرون غيرهم ويزرعون بذور مركب النقص ، ويرعون نمو الاستلاب والشعور بالدونية عند الضعفاء .

هل من مخرج ؟

تلك استراتيجية استغلال واستعمار ترمى إلى اصطدام بين أنماط الزمان ليتعكر سير التاريخ ولتعرض الذاكرة الجماعية إلى ثقب تصيب الشخصية بخلل ، فلا تبقى وسيلة للتمييز بين ماض وحاضر ومستقبل :

إن الماضي زمن الذاكرة والتذكر حيث تدخر المشاهدات والإحساسات لتبرز عند الحاجة ، مترجمة في ذكريات ، وترسم على شاشة الحاضر وما الحاضر ؟ إنه زمان تداعى المعانى ، والنش عما علق بالذاكرة مع التوق إلى ما سيكون . أما المستقبل فزمن المغامرات والتخوفات التي تترجم في تصمييات تحي في توتر الحال إلى ما سيأتى ، وقد لا يأتى .

وبتعاون الأنماط الزمانية الثلاثة يُترجم نمط رابع ، هو زمان الآمال الذي ينشط الحاضر ويحرّضه على الحركة والمغامرات .

يدخل مركب النقص عطبا على ذلك التعاون فمن الأفراد من ينكر وجود ذلك النمط الرابع باسم الواقعية والموضوعية ، ومنهم من يرفضونه لأنهم لا يقدرّون على تصوره وترجمته موضعيا ، في الواقع .

لكن أسأل أولئك القوم : هل الماضي واقع ؟ لقد « مضى » ودخل عالم التخيل إنه موضوع ما أصبح في « خبر كان » وعندما يساند التذكر التخيل ، يأتي خليط من الذكريات ، كما كانت وكما اصطنعها الحاضر .

والحاضر ، كيف يحكم على واقعه وموضوعيته وهو ما زال لم يستقر له قرار ، لم ينته

لتعرف كل أبعاده؟ إن الحاضر نمط بين نمطين ، فلا هو ماض تم وانتهى ، ولا هو مستقبل بدأ

والمستقبل ليس أكثر كثافة من الحاضر . فكيف نتحدث عن واقع ما لم يحل بعد ؟

وبالنسبة للنمط الرابع إن واقعه مغلق ، لأن الآمال هي كذلك في وضع بين بين : قد تتحقق ، وقد لا تتحقق إنه زمن يترجم عن رغبات وقاما تتوفر لأية رغبة كل الإمكانيات الضرورية لتحقيقها :

أفما آن للثالثين أن يترجموا عن أنفسهم بأنفسهم فيتطورون وبتطورهم يطورون رؤية الآخرين عنهم ؟

أفما آن أن يتجرؤوا فيقوموا بقطيعة جنارية مع حضارة التصنيع التي همشتهم وجمدتهم في مواقف التخلف واليأس ؟

إن قطيعة من هذا الحرم لكفيلة بأن تنقذهم من الهوان ، وتعيدهم إلى صف البشر فيلجوا عهد المغامرات من أجل وعى الذات والصراع المصيري لا استعادة الكرامة الفردية والتاريخية .

ذاك هو الشرط الأساسي لترجمة الواقع ترجمة واعية والتصرف فيه بموضوعية فبدون تلك القطيعة ، لا نرى سبيلا جديا للخروج من الرؤى الخرافية التي أعمت وصممت الثالثين عن ترجمة الواقع وعن الالتزام بضرورة التغيير :

**الدكتور محمد عزيز الحبابي**  
عضو المجمع من المغرب

